

ختام العدد

بُوحُ الدفاتر الشخصية: تأملات في الحياة والوطن والكتابة

كانت الدفاتر الأربعة الأولى تشعرُ بالافتقار الذاتي، لأنها وحدها من يحتجن الأوجاع الكلية، تماماً كما تدخر العناصر الأربعة: الماء والهواء والتراب والنار أسرار هذا الوجود، ثم بدا لها في نهاية النفق ما بدا.

ثنائيات الدفتر الأول

من دفتر الاختيارات الأول كانت قصة التكوين، ضربة الفرشاة الأولى التي ستشكل من امتدادات خطوطها المستقيمة والمتعرجة قسما للوحة فيما بعد، في دفترها الأول كانت النصوص تتحاور مع بعضها بألفة عجيبة خارج حدود الفصل والتجزئة، خارج سلطات الزمان والمكان التي تصنع وهم المؤتلف والمختلف، فمعلقة طرفة بن العبد تحتضن رباعيات صلاح شاهين، وأشعار بابلو نيرودا تجاور واحدة ابن زريق البغدادي بمحبة غامرة، ومقامات بديع الزمان لم تجد أدنى حرج في معانقة روايات تولستوي، وبدت رؤى كانت ونيشه وثيقة الصلة بعوالم المعري والمنتبي، وعلى صفحات هذا الدفتر تحقق اللقاء الأبدى بين ابن عربي وطاغور، حيث وحدة الوجود والمعرفة أفق مفتوح عصي على محاولات التنميط أو القولية، وهكذا ما إن تفتح الصفحة الأولى من الدفتر حتى تتدفق عليك الوجوه والنصوص والتجارب من كل حذب وصبوب، تستودع عندك أوجاع الإنسان ولحظات زهوه

نادية غازي العزاوي ❖

وانكساره، انتصاره وقهره، إبداعه وحماقته.

دفترها الأول تأكيد لمعنى أن يكون الغد انبثاقاً حتمياً طبيعياً من رحم الأمس، إذ تضمير الولادة مشروعية التشابه والاختلاف معاً. من وحي نداء دفترها القديم كتبت في مقدمة كتابها الأول: "ومن هذه الزاوية تضع المؤلفلة بين يدي القارئ الكريم هذا الكتاب، تفسح من خلاله عن موقف متمسك بالثنائية المتكاملة المتلازمة: التراث والمعاصرة، فهي إذ تتوجه إلى الموروث فإنها تتوجه إليه برؤى وتصورات وأسئلة جديدة، ومن خلال قراءات تحاول أن تميظ اللثام عن ظواهر وجوانب خصبة في التجارب الإبداعية الموروثة المحملة بالرموز والقيم والدلالات". التراث عندها جذر حي لا يكف لل لحظة عن ضخ الأنساع الصاعدة المواراة بالحياة.

جدلية العين والضاد في الدفتر الثاني

سرّها أن ما بقي متوهجاً من معجم عمرها الذي عطبتة الحروب كلمتان مركزيتان: "العربية"، و"العراق"، أدهشها أنّ الكلمتين تبدآن بحرف العين، فكّرت: ربما لأنّ "العين" أول أبجدية الخليل بن أحمد الذي فجر اللغة عيوناً سنظلّ نرتشف رحيقها الزلال. سرّها أنّ الكلمتين تتصلان عندها برباط متين مقدّس، تديم جذوته كائنات أزلية: الجاحظ، أبو الطيّب، أبو نواس، نازك وبدر، الأب الكرملّي، العباس بن الأحنف، العوّاديان كوركيس وميخائيل، مصطفى جواد، ابن الجوزي، حنين بن إسحاق، علي جواد الطاهر، الحلاج وصاحبه الشبلي، حياة شرارة، يونس بن حبيب، والجواهري....

تساءلت في سرّها عمّا إذا كانت قد نسيت أسماءً أخرى، بحثت عن الخطيب البغداديّ، فوجدته بصحبة طه باقر والأصمعيّ والمخزوميّ ومحمد خضير وابن خلكان، وحين سألت عن جواد علي، قيل لها: إنّه هناك يناظر أبناء الأثير وواصل بن عطاء وأحمد بن حنبل. شعرت بالغبطة وهي تتأمل في هذه الكائنات النفيسة، التي تتمدد على أرض الوطن من أقصاه إلى أقصاه، تواصل بدأب إكمال سفر الطين الذي خطّ عنوانه كلكاشم بالقصب السومريّ، القصب الذي استحال من بعد مساجد ومدارس ومكتبات عامرة، تأبّت على خيول المحتلين والطغاة، فما أسرع ما يتهاوى الأقرام أمام وهج النار الأزلية. من وحي هذه النار الأزلية احتفت كتبها بالذاكرة العراقية، وبما اختزنت من قيم رفيعة ومواقف مشرّفة، وشخصيات وأسماء ورموز، استطاعت الحفاظ على أصالة ملامحنا وعوالمنا الداخلية، بوجه عوامل القهر والتشويه والتغريب التي سلّطت على وجودنا، لقد كانت رحلتها في أعماق هذه الذاكرة إبحاراً ضد التيار، تيار تفتيت هذا الوطن وعمليات تقسيمه الجارية على قدم وساق، فهذه الذاكرة هي الحارس الأمين على تلك النار الأزلية.

أوجاع الحرب والسلم في الدفتر الثالث

قد يكون من سوء طالع جيل من الأجيال أن يدرك حرباً قصيرة مؤقتة، فماذا عن أجيال تولد وتعيش وتموت في ظلّ حروب لا تنتهي؟ حروب تتوالد عن

بعضها كلعنة قَدْرية لا يحيط بأبعادها إلا من تقلّب على جَمْرها، تقنّاتٌ من عمرك وأنت مرغمٌ على أن تعيشَ وقائِعها: تدمير الأمكنة، تعطيل قدرات الذات، تشويه الروح، لحظات اعتباطية مختبئة في طائفة حربية مسعورةً أطلقة طائشة، سيارة مفخخة تنتظر في طريق العودة إلى البيت، ليتعاطم حصاد الفقدانات: البشر، والآمال، والأحلام، بينما يتعالى صراخ المولودين في ردهات الولادة احتجاجاً على يُتم مبكر في انتظارهم. في الحروب المزمّنة تنهار المنمنمات الحياتية الجميلة، ويغدو المشهد قاحلاً رتيباً، فلا أحد يدرك معنى أن يَحولَ القصفُ، أو الرعبُ، أو الكهرياء المقترّة، بينك وبين مسرح تودّ متابعة عروضه، أو مطعم تشتهي أن تمضي السهرة فيه، أو كتاب تودّ أن تستمرّ في قراءته ولو على ذبالة فانوس. لا أحد يدرك معنى أن يموتَ بين يديك أبٌ أو أمٌ أو صديقٌ وأنت محكومٌ بحظر التجوال، لا أحد يدرك بالضبط مساحة الخراب حين تُفسّر على النزوح والترحيل إلى أمكنة ومصائر مجهولة، فمن أين يجيء الفرج؟ وكيف تستدّام أسباب الحياة وأنت محاصر بالعدم؟ ومتى ستنتهي فصول هذه اللعبة القذرة الخاسرة؟ هذا عن أوجاع الحرب، فماذا عن أوجاع السلم؟

-عجباً وهل للسلم أوجاع؟

- نعم، حين يكون السلم خادعاً مؤقتاً يحيل على حرب آتية لا محالة، سيكون للسلم حينذاك إيقاع بندول الساعة الذي يدقّ رتيباً على الرؤوس بانتظار لحظة انفجار جديدة .

- سلم مفرغ من معناه إذاً؟
- تماماً فهو ظلٌّ لحرب مضتْ وأخرى قادمة، يحمل الشحوب نفسه، ألوان الحرب نفسها، أصواتها، طعمها الميخ: الرمادي الذي يذكرك بالرصاص، الخاكي المبقع كالحرباء، أصداء عويل الصواريخ والطائرات الذي ما زال في الآذان، اختلاج الأبدان تحت سقوف نافذة الصلاحية، مدارس وجامعات مكتظة بالبشر ولكنها معطلة عن العلم، مسارح مهجورة، سينمات متهرئة الجدران والتقاليد، روادها صبية فقدوا آباءهم ذات معركة، وهم الآن يجربون أولى خطاهم على طريق المخدرات والدعارة .

- أما من نقطة ضوء؟

- لا بد، هكذا يقول منطق الصراع المتوازن: فالمقهور لا يكفّ للحظة عن استيلاء أجنّة الحياة في دورة جديدة، ولكنه استيلاء قيصريّ صعب، لأنّ أبطاله أناس مستضعفون: معلم درويش، وفنان مرهف، وشاعر يحاول أن يضبط الإيقاع المنكسر، وقاض ما زال يؤمن بأسطورة العدل في هذه الأرض. من وحي هذا السلم المضمخ بدخان الحروب ظلّت تؤكد في مقالاتها على أهمية الحفاظ على التماسك الداخلي، والتشبث بدفاء الحلم، والإصرار على مواصلة القراءة والكتابة، والكشف عن النبيل والجميل، بوصفها تجليات للمقاومة: مقاومة القبح بالجمال، ومقاومة الإبادة بترسيخ أسمى القيم والمثل، كيف؟ لا تبدو الأجوبة سهلةً، ولا الوصفات جاهزةً، ولكنها تحدث في وطني، هنا أو هناك بالرغم من قذائف الدبابات، ورصاص

المليشيات التي تدبّ على ثراه الطاهر.

صولات المحو في الدفتر الرابع

في عالم تسوده العولمة تجري بهمة عالية حملات المحو لتجليات الأصالة في كل شيء: للوجوه، للأوطان، للجينات، للأحزاب، للأديان، للحضارات، للأخلاق، للأذواق، عمليات تشويه وتهجين محكمة: أنوف مقصوصة، شفاه منفوخة، عيون مسحوبة إلى أقصى حدّ تتيحه الجلود البلاستيكية، خرائط ترتجف عليها أشلاء بلدان ممزقة، متاحف منهوبة، مكتبات محروقة، آثار مجروقة، دور عبادة مستباحة. والبشر مشغولون بمباهج أوطانهم الافتراضية العالقة بين قضبان الشبكة العنكبوتية.

العبث يتم بدقة بالغة، فالمحو أول الخطوات نحو إعادة التصنيع، هكذا تقول فلسفة التغيير والفوضى (الخلافة) وإعادة الهندسة، وحتى يتحقق ذلك لا بدّ أولاً من محو الذاكرة، والإجهاز على وعي التاريخ: يُنسف جامعُ النبي يونس ليبنى على جثته مطعم ماكدونالد، تجرف أميرةُ الحضرة ليوضع على نصبها تمثال إنجيلا جولي ترضع بأثدائها المقطوعة أطفالاً تتبّاهم في موجة استرقاق إعلامية جذّابة، تدمر خزانات المخطوطات القديمة ليبنى فوقها (مول) أو (كافيه). وسط ركام الذكريات المسفوحة عثرتُ على ”يوميات قاسم عبد الأمير عجام“، مكتوبة بحبر من النجيع، محفورة على جدران معبد بابل، يروي فيها فصولاً من الثبات بوجه التدمير: ”تباركت الكلمة في كل حين تصدق فيه،

تباركت تاريخاً أميناً، وتباركت صوتاً لمحروم، أو رايةً لمقاتل عدل، تباركت جسراً بين العشاق، وصدىً لآمال عراض، أو آهات أعماق ملتاعة، وتباركت حتى سلوى أو ملجأً لأسير أو مختنق أو غريب كما أنا الآن، نعم فليس لي غيرها“. وعلى جدران المدرسة المستنصرية المثقلة بغبار النسيان والجحود عثرتُ على ”يوميات عبد الإله أحمد“ وهي تتلمّس الجمرات المختبئة خلف ركام الرماد، لتنفخ فيها الروح من جديد.

استدراك على المتن: كان لا بدّ وقد اشتدت وطأة الطغيان والقبح في هذا العالم، من أن تبحث الدفاتر الأربعة عن دفاتر جديدة تستكمل رواية ما يحصل، مع يقين كامل بأنّ البقية ستأتي بالتأكيد.

نوافذ الدفاتر القادمة

ظل كلكامش يرسل برقياتِه من نافذة الملحمة: ”هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يا بلادي“، فترجع أصداءها نوافذ البريكان ومظفر النواب والسيّاب وكاظم الحجاج، وكل ضحايا القهر والظلم، فلا بديل لتبديد الوجود من برقيات النوافذ، حيث تؤدّي العيون المتوارية خلف نوافذ النصوص أدواراً ممتازة في الكشف والتعرية والإدانة بوسائل خفية من التلصص والتربص والمراقبة والفضول، فحين تعجز الأفواه المكمّمة عن الكلام في السجون، تجري عمليات التبادل بسرّية تامة، تكفل انسيابية تمرير الدلالات وتهريب المعاني المستخلصة: فلئن كانت الأفواه مجبرةً على الصمت، فإنّ العيون قادرةٌ على فضح الوقائع من خلف نوافذ

نقدية (٢٠١٢)، جذوة الروح ورمادها: يوميات
عبد الإله أحمد ونصوص أخرى.

النصوص، في غفلة من رقابة السجنان المغفل الذي لن
يتعلم أبجدية لغة النوافذ، ولن يفتن لتورياتها وكنياتها
العابرة للحواجز والسيطرات.

من وحي ترنيمه النوافذ ستظل تدين كلماتها كلَّ
أشكال التدمير التي طالت الوطن، مادام ثمة من يتهاون
من أبناء هذا الوطن بمقدراته التاريخية، بل يتطوع لتقديم
الوطن محرقةً للآخر، وإلا كيف تحرق مكتبة المثنى
تحت جناح الظلام؟ ولماذا تُجفف الأهوار؟ ولماذا
تغرّق عانة وراوة؟ ولماذا يُراد للموصل أن تُستأصل
من الخارطة؟ ولصالح من دُمّر المتحف الوطني؟ ولم
يغتال علماؤنا ويهجّر مبدعوننا؟ أهي مصادفة أن يموت
جلّهم في المنافي ويدفنوا في مقابر الغرباء؟ ولماذا
فُجّر شارع المتنبي؟ ولماذا نُهب مركز الفنون ومتحف
الرّسامين الروّاد؟ وكيف سُرقت المكتبة الوطنية ودار
الكتب والوثائق؟ ومن المسؤول عن تحويل مكتبة
الأوقاف إلى أطلال خاوية؟ ومن أفرغ خزائن مكتبات
الجامعات؟ لماذا؟ وكيف؟ ولصالح من؟ النوافذ ستظل
بالمرصاد، ولن تكفّ الدفاتر عن تسجيل وقائع الجرائم
الخفية والمعلنة.

الهوامش

١. أستاذة الأدب العربي والنقد في الجامعة
المستنصرية. صدر لها: المغيب والمعلن:
قراءات في نصوص تراثية (٢٠٠٢)، من
تجليات الذاكرة: دراسات في نصوص عراقية
(٢٠٠٥)، مأزق الغراب: دراسات ومقالات